﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾

وهنا قد يسأل سائل : أبعد كل هذه الصفات لعباد الرحمن ننفى عنهم هذه الصفة ﴿لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان] وهم مَا اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم مؤمنون بالإله الواحد سبحانه ؟ قالوا : هذه المسألة عقيدة وأساس لا بُدَّ للقرآن أن يكررها ، ويهتم بالتأكيد عليها .

ومعنى : ﴿لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان] أى : لا يدعون أصحاب الأسباب لمسبِّباتهم ، وهذا هو الشرك الخفىّ . ومنه قولهم : توكلتُ على الله وعليك . فنقول له : انتبه ليس علىَّ شىء ، الأمر كله على الله . فقُلْ : توكلت على الله . وإنْ أردتَ فقُلْ : ثُمَّ عليك[1] .

ونسمع آخر يقول للأمر الهام : هذا علىَّ ، والباقى على الله ، فجعل الأصل المهم لنفسه ، وأسند الباقى لله ، أيليق هذا والمسألة كلها أصلها وفروعها على الله ؟

إذن : يمكن أن تكون هذه الآية للمفتونين فى الأسباب الذين ينتظرون منها العطاء ، وينسَوْنَ المسبِّب سبحانه ، وهذا هو الشرك الخفى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان] سبق أنْ تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ، وقلنا :

(١) أخرج ابن ماجة فى سننه (٢١١٧) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال قال ﷺ : « إذا حلف أحدكم فلا يقل : ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل : ما شاء الله ثم شئت » .

إن كليهما تذهب به الحياة ، لكن فى الموت تذهب الحياة أولاً ، ثم تُنقض البنية بعد ذلك ، أما فى حالة القتل فتُنقض البنية أولاً ، ثم يتبعها خروج الروح . فالموت - إذن - بيد الله عز وجل ، أما القتل فقد يكون بيد البشر .

وهنا نَهْى صريح عن هذه الجريمة ؛ لأنه « ملعون مَنْ يهدم بنيان الله » ويقضى على الحياة التى وهبها الله تعالى لعباده .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] أى : حق يبيح القتل كرَجْم الزانى حتى الموت ، وكالقصاص من القاتل ، وكقَتْل المرتد عن دينه ، فإنْ قتلْنا هؤلاء فقتلُهم بناء على حَقٍّ استوجب قتلهم .

فإن قال قائل : فأين حرية الدين إذن ؟ نقول : أنت حر فى أن تؤمنَ أو لا تؤمن ، لكن اعلم أولاً أنك إنْ ارتددتَ عن إيمانك قتلناك ، فإياك أنْ تدخل فى ديننا إلا بعد اقتناع تام حتى لا تُعرِّض نفسك لهذه العاقبة .

وهذا الشرط يمثِّل عقبة وحاجزاً أمام مَنْ أراد الإيمان ويجعله يُفكِّر ملياً قبل أنْ ينطق بكلمة الإيمان ويحتاط لنفسه ، إذن : فربُّكَ عز وجل يُنبِّهك أولاً ، ويشترط عليك ، وليس لأحد بعد ذلك أن يقول : أين حرية الدين ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَزْنُونَ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] تحدثنا عن هذه المسألة فى أول سورة النور وقلنا : إن الإنسان الذى كرَّمه الله وجعله خليفةً له فى أرضه أراد له الطُّهْر والكرامة ، وأنْ يسكن الدنيا على مقتضى قانون الله ، فلا يُدخل فى عنصر الخلافة شيئاً يخالف هذا القانون ؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يبنى المجتمع المؤمن على الطُّهْر ويبنيه على عناية المربِّى بالمربَّى .

لذلك تجد الرجل يعتنى بولده مطْعماً ومشرباً وملبساً ويفديه بنفسه ، لماذا ؟ لأنه ولده من صُلْبه ومحسوب عليه ، أمّا إنْ شكّ فى نسب ولده إليه فإنه يُهمله ، وربما فكّر فى الخلاص منه ، وإنْ رُبِّى مثل هذا رُبِّى لقيطاً لا أصلَ له ، وهذا لا يصلح لخلافة الله فى أرضه ، ولا لأن يحمل هذا الشرف .

وهذا يدل على أن الفطرة السليمة تأبى أنْ يوجد فى كون الله شخص غير منسوب لأبيه الحق ، من هنا نهى الإسلام عن الزنا ، وجعل من صفات عباد الرحمن أنهم لا يزنون .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ [الفرقان] أثاماً مثل : نكالاً وَزْناً ومعنىً ، والآثام : عقوبة الإثم والجزاء عليه .

﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) ﴾

كيف نفهم مضاعفة العذاب فى هذه الآية مع قوله تعالى فى آية أخرى :﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

ويقول سبحانه : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾ [الأنعام]

الحقيقة لا يُوجد تناقض بين آيات القرآن الكريم ، فالذى يرتكب هذه الفعْلة يكون أسْوة فى المجتمع تُجرِّىء الغير على ارتكاب هذه الجريمة ؛ لذلك عليه وِزْره كفاعل أولاً ، وعليه وِزْر مَن اقتدى به .

كما جاء فى قوله تعالى حكايةً عن الكافرين : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف] إذن : فوجود الآباء كقدوة للشر يزيد من شرِّ الأبناء ، فكأنهم شركاء فيه .

لذلك يقول تعالى في موضع آخر : ﴿ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)** ﴾ [النحل]

وقال : ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣)** ﴾ [العنكبوت]

فالوِزْر الأول لضلالهم في ذاته ، والوِزْر الآخر ؛ لأنهم أضلّوا غيرهم ، هذا هو المراد بمضاعفة العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ **وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩)** ﴾ [الفرقان] معنى (مُهَاناً) : حينما وصف القرآن العذاب وصفه مرةً بأنه أليم ، ومرةً عظيم ، ومرة مُهين . فالذي ينظر إلى إيلام الجوارح يقول : هذا عذاب أليم ؛ لأنه يُؤلم كل جارحة فيه ، فالعذاب أمر حسيّ ، أما الإهانة فأمر معنوي ، ومن الناس مَنْ تؤلمه كلمة تنال من كرامته ، ومنهم مَنْ يُضرب فلا يؤثر فيه .

والخالق - عز وجل - خلق الناس وعلم أزلاً أنهم أبناء أغيار ، ليس معصوماً منهم إلا الرسل ، إذن : فالسيئة مُحْتملة منهم .

ومن تمام رحمته تعالى بربوبيته أنْ فتح باب التوبة لعباده ، لمن أسرف منهم على نفسه في شيء ؛ لأن صاحب السيئة إنْ يئس من المغفرة استشرى خطره وزاد فساده ، لكن إنْ فتحتَ له باب التوبة والمغفرة عاد إلى الجادة ، واستقام على الطاعة ، وفي هذا رحمة بالمجتمع كله .

يقول تعالى :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فربُكم كريم ورحيم ، إنْ تُبتْم تاب عليكم وقَبلكم ، فإنْ قدَّمْتُم العمل الصالح واشتدّ ندمكم على ما فات منكم مِن معصية يُبدِّل سيئاتكم حسنات.

وللتوبة أمران : مشروعيتها من الله أولاً ، وقبولها من صاحبها ثانياً ، فتشريعها فَضْل ، وقبولها فَضْلٌ آخر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة] والمعنى : تاب عليهم بأنْ شرَّع لهم التوبة حتى لا يستحُوا من الرجوع إلى الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] تاب وآمن لمن عمل معصية تُخرجه عن الإيمان ، فالعاصى لم يقارف المعصية إلا فى غفلة عن إيمانه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »(١).

ولو استحضر العاصى جلالَ ربه ما عصاه ، ولتضخمتْ عنده المعصية فانصرف عنها ، وما دام قد غاب عنه إيمانه فلا بُدَّ له من تجديده ، ثم بعد ذلك يُوظِّف هذا الإيمان فى العمل الصالح .

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] فالجزاء

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان] وليس المراد أن السيئة تُبدَّل فتصير حسنة مباشرة ، إنما يرفع العبد السيئة ويحل محلها التوبة ، وبعد التوبة يضع الله له الحسنة .

وقد أطمعتْ رحمة الله ومغفرته بعض الناس ، حتى قال الشاعر :

مَوْلاَى إنِّي قَدْ عصيتُكَ عَامداً   لأراكَ أجملَ ما تكُون غفُوراً
ولَقَدْ جنيْتُ منَ الذُّنُوب كبَارَهَا   ضنّاً بعفْوك أنْ يكُونَ صَغيراً

حتى وصل الحال ببعضهم أنْ يستكثر من السيئة طمعاً فى أن تُبدَّل حسنات ، لكن مَنْ يضمن له أن يعيش إلى أنْ يتوب ، أو أنه إنْ تاب قَبل الله منه ؟

والعلة النفسية التى تكلَّم عنها العلماء فى هذه المسألة أن الذى ابتعد عن المعصية فلم يقع فى شراكها لم يدرك لذة الشهوة ، فلا تأتى على باله ، أمّا مَنْ خاض فيها ، وذاق لذتها ، وأسرف فيها على نفسه فيعانى كثيراً حينما يحجز نفسه وينأى بها عن معصية الله ، فهذه المعاناة هى التى جعلتْ له هذه المنزلة .

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾

معنى ﴿ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾ [الفرقان] يعنى : توبة نصوحاً ، لا عودة بعدها إلى المعصية ، لا يرجع فى توبته كالمستهزئ بربه ، يقول : أفعل كذا ثم أتوب . وكلمة ﴿ مَتَابًا (٧١) ﴾ [الفرقان] تعنى : العزم ساعةَ أنْ يتوبَ ألاَّ يعود ، والخطر فى أن يُقدم العبد على الذنب لوجود التوبة ، فقد يُقبض فى حال المعصية ، وقبل أنْ يُمكنه التوبة[1] .

---

(١) قال القفال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان] ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملاً صالحاً ، فله حكم التائبين أيضاً . [تفسير القرطبى ٧/٤٩٥٦] .

ثم تذكر الآيات خصلة أخرى من خصال عباد الرحمن :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾

الزُّور : الشيء الكذب ، ويُزوِّر في الشهادة . أي : يُثبت الحق لغير صاحبه ، لكن نلاحظ أن الآية لم تقُلْ : والذين لا يشهدون بالزور ، مما يدلّ على أن للآية معنى أوسع من النطق بقول الزور في مجال التقاضي ، حيث تقول عند القاضي : فلان فعلْ وهو لم يفعل .

فللشهادة معنى آخر : أي : لا يحضرون الزور ، والزور كلُّ مَا خالف الحق ، ومنه قوله تعالى في شهر رمضان : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان] أي : لا يحضرون الباطل في أيّ لون من ألوانه قولاً أو فعلاً أو إقراراً ، وكل ما خالف الحق .

لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص]

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .. ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء]

ومعلوم أن قَوْل الزور والشهادة بغير حق تقلب الحقائق وتضرُّ بالمجتمع ؛ لأنك حين تشهد بالزُّور تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغيره ، وهذا يؤدى إلى تعطل حركة الحياة ، وتجعل الإنسان لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه ، فيحجم الناس عن السعى والعمل ما دامت المسألة زوراً فى النهاية .

لذلك قال النبى ﷺ : « ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت »[1]

لماذا ؟ لأن شهادة الزُّور تهدم كُلَّ قضايا الحق فى المجتمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان] اللغو : هو الذى يجب فى عُرْف العاقل أنْ يُلْغى ويُتْرك ، وهو الهُراء الذى لا فائدة منه ؛ لذلك قال فيمن يتركه ﴿ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان] والكرام يقابلها اللئام ، فكأن المعنى : لا تدخل مع اللئام مجالَ اللغو والكلام الباطل الذى يُصادم الحق ليصرف الناس عنه .

ومن ذلك ما حكاه القرآن عن الكفار ليصرفوا الناس عن الاستماع لآيات الذكر : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

يعنى : شوِّشوا عليه حتى لا يتمكّن الناس من سماعه ، وهذه شهادة منهم بأنهم لو تركوا آذان الناس على طبيعتها وسجيتها فسمعت القرآن ، فلا بُدَّ أن ينفعلوا به ، وأن يؤمنوا به ، ولو لم يكُنْ للقرآن أثر فى النفوس ما قالوا هذه المقولة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٣٧/٥) ، والترمذى فى سننه (٣٠١٩) من حديث أبى بكرة نفيع بن الحارث ، قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح .

وقولهم : ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت] يعنى : وإنْ سمعتموه يُقرأ فالْغوْا فيه ، وشوِّشوا عليه ، حتى لا يصل إلى الآذان ، لماذا ؟ ألم يؤمن سيدنا عمر لما سمع آيات منه فى بيت أخته فاطمة ؟ لكن لماذا أثَّر القرآن في عمر هذه المرة بالذات ، وقد سمعه كثيراً فلم يتأثر به ؟

قالوا : لأن اللجج والعناد يجعل الإنسان يسمع غير سامع ، أما سماع عمر هذه المرة ، فكان بعد أن ضرب أخته فشجَّها ، وسال منها الدم ، فحرّك فيه عاطفة الأخوة وحنانها ، ونفض عنه الكبرياء والعناد واللجاج ، فصادف القرآنُ منه نفساً صافية ، وقلباً خالياً من اللدد للإسلام فأسلم .

ألاَ ترى الكفار يقول بعضهم لبعض عند سماع القرآن - كما حكاه القرآن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد]

يعنى : ما معنى ما يقول ، أو : ما الجديد الذى جاء به ، وهذا على وجه التعجُّب منهم . فيردّ القرآن : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المُستقبل له مختلف : هذا استقبله بنفس صافية راضية ، وهذا استقبله بلَدد[1] وقلب مُغْلق ، فكأنه لم يسمع ، فالمسألة مسألة فعْل وقابل للفعْل ، وسبق أن مثَّلنا لذلك بمَنْ ينفخ فى يده أيام البرد والشتاء بقصد التدفئة ، وينفخ فى كوب الشاى مثلاً بقصد التبريد ، فالفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف .

(١) اللدد : الخصومة الشديدة والألد : الشديد الخصومة الجَدِل . [لسان العرب - مادة : لدد] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ ذُكِّرُوا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] لا تُقال إلا إذا كان المقابل لك الذى تذكره عنده إلْفٌ بالذكْر ، وعنده علْم به ، والآيات التى تُذكِّر بها لها قدوم أول ، ولها قدوم ثان : القدوم الأول : هو الإعلان الأول بها ، والقدوم الثانى : حين تنسى نُذكِّرك بها .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الآيات تُطلَق على معَانٍ ثلاثة : إمّا آيات كونية تُلفت النظر إلى قدرة الله تعالى ، وأنه صانع حكيم .. الخ ، وإمّا آيات معجزات جاءت لتأييد الرسل وإثبات صدْقهم فى البلاغ عن الله ، وإمّا آيات الذكْر الحكيم ، والتى تُسمَّى حاملة الأحكام ، وهى تُنبِّه من الغفلة ، وتُذكِّر الناس .

فالمعنى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] أى : فى القرآن الكريم : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] لم يخروا : الخرّ : هو السقوط بلا نظام وبلا ترتيب .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل] فالسقف إنْ خَرَّ يخرّ بلا نظام وبلا ترتيب .

ومنه قوله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَكُونَ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء] لأنهم يخرّون بانفعال قَسْرىّ ، ينشأ من سماع القرآن .

إذن : حين يُذكَّرون بآيات الله لم يخرّوا عليها صُمّاً وعمياناً ، إنما يخِرُّون وهم مُصغون تمام الإصغاء ، ومبصرون تمام الإبصار .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾

هذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن ، يطلبون فيها أمرين ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. (٧٤) ﴾ [الفرقان] والذرية لا تأتي إلا بعد الزواج ؛ لذلك جاء الدعاء للأزواج ، ثم للذرية .

وكلمة ﴿ قُرَّةَ .. (٧٤) ﴾ [الفرقان] تُستعمل بمعنيين ، وفي اللغة شيء يسمونه (عامل اشتقاق) يعني : يشتق اللفظ من معنى عام ، وقد يختلف معناه ، لكن في النهاية يلتقيان على معنى واحد .

وكلمة (قُرَّة) تأتي بمعنى اللزوم والثبات ، من قَرَّ في المكان يعني : لزمه وثبت فيه ، وتأتي بمعنى السرور ؛ والقُرُّ يعني أيضاً : شدة البرودة ، كما جاء في قول الشاعر :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيلَ لَيْلُ قُرّ ... والريحَ يا غُلامُ ريحُ صُرّ
عَلَّ أنْ يَرى نَارك مَنْ يمرُّ ... إنْ جلبتْ ضَيْفاً فأنتَ حُرّ

فالقُر : البرد ، والقرور : السُّكون ، والعين الباردة : دليل السرور ، والعين الساخنة دليل الحزن والألم ، على حَدِّ قول الشاعر :

فَأمَّا قُلوبُ العَاشقينَ فأُسخِنَتْ ... وأمَّا قُلوبُ العَازلين[1] فقرَّت

(١) عزل الشيء يعزله فاعتزله : نحّاه جانباً فتنحّى . [لسان العرب ـ مادة : عزل] أي : أنهم عزلوا قلوبهم عن العشق والحب والوصال فاستراحت واستقرت قلوبهم .

لذلك يكنُون ببرودة العين عن السرور ، وبسخونتها عن الحزن ، يقولون : رزقني الله ولداً قَرَّتْ به عيني ، ويقولون : أسخن الله عين فلان يعني : أصابه بحُزْن تغلي منه عينه .

ولأن العين جوهرة غالية في جسم الإنسان فقد أحاطها الخالق - عز وجل - بعناية خاصة ، وحفظ لها في الجسم حرارةً مناسبة تختلف عن حرارة الجسم التي تعتدل عند ٣٧°، فلو أخذتْ العينُ هذه الدرجة لانفجرتْ.

ومن عجيب قدرة الله تعالى أن تكون حرارة العين تسع درجات ، وحرارة الكبد أربعين ، وهما في جسم واحد .

فالمعنى ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان] يعني : اجعل لنا من أزواجنا ما نُسَرُّ به ، كما جاء في الحديث الشريف عن صفات الزوجة الصالحة : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة : إنْ أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرَّته ، وإن أقسم عليها أبرَّته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله »(١)

وهَبْ لنا من ذرياتنا أولاداً ملتزمين بمنهج الله ، لا يحيدون عنه ، ولا يُكلِّفوننا فوق ما نطيق في قول أو فعل ؛ لأن الولد إنْ جاء على خلاف هذه الصورة كان مصيبة كبرى لوالديه ، بدليل أن الرجل قد يسرف على نفسه بأنواع المعاصي ، وقد يُقصِّر في حق الله ، لكن يحزن إنْ فعل ولده مثل فعْله .

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه (١٨٥٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، قال البوصيري في زوائده : « في إسناده علي بن يزيد . قال البخاري : منكر الحديث . وعثمان ابن أبي العاتكة مختلف فيه . والحديث رواه النسائي من حديث أبي هريرة وسكت عليه . وله شاهد من حديث ابن عمر » .

فالأب قد لا يصلي ، لكن يحثُّ ولده على الصلاة ، ويفرح له إنْ صلى واستقام ، لماذا ؟ لأنه يريد أن يرى وأن يُعوِّض ما فاته من الخير والجمال في ابنه ، ولا يحب الإنسان أن يرى غيره أحسن منه إلا ولده ؛ لأنه امتداده وعوَضه فيما فات .

وإنْ أخذنا ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. (٧٤) ﴾ [الفرقان] على أنها بمعنى الاستقرار والثبات ، فالمعنى أن تكون الزوجة على خُلُق وأدب وجمال ، بحيث تُرضي الزوج ، فلا تمتد عينه إلى غيرها ، وتسكن عندها لأنها استوفت كل الشروط ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. (٨٨)** ﴾ [الحجر]

وكذلك إنْ وجد صفات الخير والأدب والجمال في أولاد بحيث لا تمتد عينه إلى أكثر من ذلك ؛ لأنه يرى في أولاده كُلَّ تطلعاته ، وكل ما يتمناه ، فلا يتطلع إلى غيرهم ؛ لذلك حين يمدحون . يقولون : فلان لم يَعُدْ عنده تطلعات ، لماذا ؟ لأنه حقَّق كل ما يريد .

ويقولون في المدح أيضاً : فلان هذا قَيْد النظر ، يعني : حين تراه تسكن عنده عينك ، ولا تتحول عنه لجماله وكمال صفاته .

والولد حين يكون على هذه الصورة ، يريح والديه في الدنيا وفي الآخرة ؛ لأنه ولد صالح لا ينقطع برّه بوالديه لموتهما ، إنما يظل باراً بهما حتى بعد الموت فيدعو لهما . وفي الآخرة يجمعهم الله جميعاً في مستقر رحمته : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١)** ﴾ [الطور]

وهكذا كله في الأزواج وفي الأولاد هبة ومنحة من الله .

ونلحظ أن بعض الأزواج يعيشون مع أزواجهم على مَضَض ، وربما على كُرْه تحملهم عليه ظروف الحياة والأولاد واستقرار الأسرة ، فإنْ قلتَ للزوج : إن زوجتك ستكون معك في الجنة يقول : كيف ، حتى في الآخرة ؟! وهو لا يعلم أن الله تعالى سيُطهِّرها من الصفات التي كرهها منها في الدنيا .

قال سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ[1] .. (١٥) ﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) ﴾ [يس]

وقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ [الفرقان] نلحظ أن الدعوة هنا جماعية ، ومع ذلك لم يقُلْ أئمة ، وذكر إماماً بصيغة المفرد ، فلماذا ؟

قالوا : لأنه تعالى يُنبِّهنا إلى أنّ الإمام هو الذي يسير على وَفْق منهج الله ولا يحيد عنه ؛ لذلك إنْ تعددتْ الأئمة فهُمْ جميعاً في حُكْم إمام واحد ؛ لأنهم يصدرون عن رب واحد ، وعن منهج واحد لا تحكمهم الأهواء فتُفرِّقهم كالأمراء مثلاً . فجمعهم في القول من كل منهم على حدة ووحدهم في الإمامة.

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣٥٢/١) : « أي مطهرة من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا » . ونقل ابن منظور في لسان العرب (مادة : طهر) قول أبي إسحاق في معنى هذه الكلمة في الآية : « معناه أنهن لا يحتجن إلى ما يحتاج إليه نساء أهل الدنيا بعد الأكل والشرب ، ولا يحضن ولا يحتجن إلى ما يُتطهر به ، وهن مع ذلك طاهرات طهارة الأخلاق والعفة ، فمطهرة تجمع الطهارة كلها لأن مطهرة أبلغ في الكلام من طاهرة » .

ثم يقول الحق سبحانه عن جزاء عباد الرحمن :

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ[1] بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ أُولَٰئِكَ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان] خبر عن عباد الرحمن الذين تقدمتْ أوصافهم ، فجزاؤهم ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان] وجاءت الغرفة مفردةً مع أنهم متعددون ، يحتاج كل منهم إلى غرفة خاصة به .

قالوا : لأن الغرفة هنا معناها المكان العالى الذى يشتمل على غرفات ، كما قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ]

وهذا الجزاء نتيجة ﴿ بِمَا صَبَرُوا .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان] صبروا على مشاقِّ الطاعات ، وقد أوضح النبى ﷺ هذه المسألة بقوله : « حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات »[2].

فالجنة تستلزم أن أصبر على مشاقِّ الطاعات ، وأن أُقدِّر الجزاء على العمل ، وأستحضره فى الآخرة ، فإنْ ضقْتَ بالطاعات وكذَّبْتَ بجزاء الآخرة ، فلِمَ العمل إذن ؟

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذى يجدّ ويجتهد فى دروسه ، لأنه يستحضر يوم الامتحان ونتيجته ، وكيف سيكون موقفه فى هذا اليوم ، إذن : لو استحضر الإنسانُ الثوابَ على الطاعة لَسهُلَتْ عليه وهانتْ عليه متاعبها ، ولو استحضر عاقبة المعصية وما ينتظره من جزائها لابتعد عنها .

---

(١) الغرفة : الدرجة الرفيعة ، وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها ، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا . حكاه ابن شجرة . وقال الضحاك : الغرفة الجنة . [ذكره القرطبى ٤٩٦١/٧] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٥٣/٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

فالتكاليف الشرعية تستلزم الصبر ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

فالحق - تبارك وتعالى - يريد منّا ألاّ نعزل التكاليف عن جزائها ، بل ضَعِ الجزاء نُصْب عينيك قبل أنْ تُقدِم على العمل .

لذلك النبى ﷺ يسأل أحد صحابته : « كيف أصبحتَ يا حارثة[1] » فيقول : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، فقال : « إنَّ لكل حقّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟

قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا ، حتى استوى عندى ذهبها ومدرها[2] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون .

فالمسألة - إذن - فى نظرهم لم تكُنْ غيباً ، إنما مشاهدة ، كأنهم يرونها من شدة يقينهم بها ؛ لذلك قال له النبى ﷺ : « عرفتَ فالزم »[3]

والإمام على - كرَّم الله وجهه - يقول : لو كُشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً . لماذا ؟ لأنه بلغ من اليقين فى الغَيب إلى حدِّ العلم والمشاهدة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) ﴾ [الفرقان]

التحية : أن نقول له : إننا نُحييك يعنى : نريد حياتك بأُنْسك بنا ، والسلام : الأمان والرحمة ، لكن ممَّنْ يكون السلام ؟ وردُّ السلام فى

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . انظر ترجمته فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة - ١٤٧٥) لابن حجر العسقلانى ، وقد ذكر روايات كثيرة لحديثه هذا .

(٢) المدر : قطع الطين اليابس . [لسان العرب - مادة : مدر] .

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى الكبير ، وقال : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

القرآن الكريم بمعان ثلاثة : سلام من الله ، كما فى قوله تعالى :
﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

وسلام من الملائكة : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم .. (٢٤) ﴾ [الرعد]

وسلام من أهل الأعراف ، وهم قوم استوتْ حسناتهم وسيئاتهم ، فلم يدخلوا الجنة ، ولم يدخلوا النار ، وهؤلاء يقولون : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : فعباد الرحمن يُلَقَّوْن فى الجنة سلاماً من الله ، وسلاماً من الملائكة ، وسلاماً من أهل الأعراف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) ﴾

وسبق أنْ قال تعالى عن النار ﴿ سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) ﴾ [الفرقان] لأنها قبيحة ، ومقابلها هنا ﴿ حَسُنَتْ .. (٧٦) ﴾ [الفرقان] والمستقر : مكان الإقامة العابرة غير الدائمة ، والمقام : مكان الإقامة الدائمة ، ومعلوم أن مَنْ يدخل الجنة يقيم فيها إقامة أبدية دائمة ، أما مَنْ يدخل النار فقد يخرج منها ، إنْ كان مؤمناً . فكيف قال عن كل منهما : مُستقراً ومُقَاماً ؟

قالوا : لأنهم ساعةَ يأتيهم نعيم وجزاء نقول لهم : ليس هذا هو النعيم الدائم ، فالمستقر فى نعمة واحدة ، إنما المقام فى نِعَم أخرى كثيرة مُترقية مُستعلية ، لدرجة أن الكمالات فى عطاء الله لا تتناهى .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة الفرقان بقوله تعالى :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ﴾

بعد أن تحدث الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن عباد الرحمن ، وذكر أوصافهم وجزاءهم توجّه إلى الآخرين الذين لم يتصفوا بهذه الصفات ، ولن ينالهم شيء من هذا النعيم ، يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أن الله تعالى سيبالى بكم ، أو يهتم ، أو يكون فى معونتكم ؛ لأن الله تعالى لا يبالى إلا بعباده الذين عبدوه حَقَّ العبادة ، وأطاعوه حَقَّ الطاعة ، وأنتم خالفتُمْ الأصل الأصيل من إيجاد الخَلْق ، ولم تحققوا معنى الاستخلاف فى الأرض الذى خلقكم الله تعالى من أجله .

فكما أنكم انصرفتم عن منهج الله ولم تَعْبئوا به ولم تعبدوه ، ولم يكُنْ على بالكم ، فكذلك لا يعبأ الله بكم ، ولن تكونوا على ذِكْر منه سبحانه ، وسوف يهملكم .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا دُعَاؤُكُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : لولا عبادتكم ، حيث إنها لم تقع ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] أى : بالأصل الأصيل ، وهو أنكم مخلوقون للعبادة ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] كما لازمتم أنتم الكفر بى ولم تعبدونى وأصررتُم على الكفر ، كذلك يكون الجزاء من جنس العمل لِزاماً لكم ، فلا يُفارقكم أبداً .

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ